تقديم

يختلف التعبير الشعبى أساساً عن التعبير الفردى فى أمرين جوهريين: الأول، أن هذا التعبير الشعبى يركز أكثر ما يركز على مسائل وجودية ترتبط بالوجود الكلى. وحتى عندما انشغل الإنسان فى مراحل متأخرة، بالصراع بين الأنا والآخر. فإنه بعد أن يبصّر بهذا الصراع. يحيله فى النهاية إلى التفسير الكونى لطابع الأشياء.

أما الأمر الثانى، فهو أن هذا التعبير يتعامل مع المسائل الوجودية على أساس أنها قابلة للفهم، حيث أن هذا التعامل ينبع أساساً عند الإنسان الشعبى من الإحساس بحتمية العلاقة بين الإنسان والطبيعة من ناحية، والإنسان والزمن أو التاريخ، من ناحية أخرى.

الإنسان الشعبى إذن، يحس أنه لابد أن يملك العالم، فهو لذلك يحاول أن يستوعبه فى أفق فهمه، وأن يبحث له عن مغزى يحل به كل مشكلاته. ولهذا فإن الفهم عنده يتحرك بين قطبين: قطب يتمثل فى إحساسه بالأشياء بوصفها جزءاً من كيانه؛ وقطب يتحقق فيه الاندماج فى الوجود الكلى.

ولاعجب بعد هذا أن نجد التعبير الشعبى على الدوام يجمع بين الدينى والدنيوى. وإذا كان الدنيوى غير مكتمل، وكان ينزع إلى الخروج عن النظام المثالى، فإن الدينى لابد أن يسعى فى حركته إلى الاكتمال والكمال. والوسيط الذى يتحرك بين هذا الدينى وذاك الدنيوى هو البطل على نحو يؤكد قيمة البطولة فى التعبير الأدبى الشعبى. فالبطولة الشعبية تتحدد حركتها بغائية تتلاشى معها الفوضى ليسود النظام. ويتلاشى معها الشر ليسود الخير. ويتلاشى معها القبح ليسود الجمال.

فهل يمكن أن نقول أن البطولة الشعبية بكل أشكالها تفجرت عن رغبة الإنسان الشعبى الطبيعى الملحة فى الصمود والتسامى؟

إن البطل فى كل الآداب الشعبية يصور وكأنه بذرة نبتت فى أرض مهملة.. وهذه البذرة تظل تنمو مواجهة كل عواصف الحياة إلى أن تنطلق متحررة من كل قيد يعوق حركتها نحو التسامى. وهناك يجد معنى الوجود ومغزى الحياة.

وهكذا أدرك الحس الشعبى منذ القدم ما أدركه الفلاسفة بعد ذلك بقرون. وهو أن معنى الحياة لايقع فى إطار المرئى والمسموع، بل فيما وراء هذا المرئى والمسموع، أى فى الوجود البعيد الغائب عن حس الإنسان.

وعلى هذا النحو تشكل الأبطال الأسطوريون، كما تشكل أبطال الحكايات الخرافية، فالبطل فى الأساطير يتحرك حركة رأسية من

أعلى إلى أسفل، أو من أسفل إلى أعلى من أجل البحث عن معنى للوجود يرتاح إليه الناس ويسيرون على هديه.

وعلى هذا النحو، أو على نحو قريب منه، تتشكل صورة البطل الخرافى؛ إنه يولد صغيراً ربما مثل «عقلة الإصبع»، أو يولد مهملاً لايأبه به أحد، ولكنه لايلبث أن يكبر وتقوى إرادته، وتزداد جرأته، فيخرج إلى العالم الأرحب ومنه إلى العوالم المجهولة لاقتناص معنى آخر للحياة يضاف إلى رصيد المعنى الذى تركه الأبطال الأسطوريون.

وفى مرحلة تاريخية تالية لذلك، عندما ازداد الإنسان انشغالاً بعالمه الواقعى وبكل ما فيه من مفارقات ومتناقضات، صنع نموذجاً ثالثا لبطل يعيش واقعه فى عمق. على أن هذا البطل لايكتفى برصد الواقع الذى يعانى فيه الناس من الصراعات، بل ينطلق من المحدود إلى اللامحدود لعله يستكشف للشعب حكمة أو معنى يبصره بحقائق الأشياء ويعينه على تحمل الحياة.

وتعد البطولات الشعبية التى احتفل بها الشعب العربى بعد الإسلام تعبيراً عن حس عربى جمعى منبثق من المفهوم العام للبطولة الشعبية من ناحية، ومن الوعى الخاص بالتاريخ بالمفهوم الإسلامى من ناحية أخرى.

فمما لاشك فيه أنه بعد أن استقرت العقيدة الإسلامية فى ضمير الشعب العربى وفى فكره وسلوكه، أصبح الحس الجمعى منشغلاً شعوريا ولاشعوريا بحركة الحياة وغائيتها بعد أن غير الإسلام

الكثير من المفاهيم التى ترتبط بمعنى الحياة والوجود، والحق والباطل. وعلاقة الإنسان بالزمن المحدود واللامحدود؛ فللحياة مغزى وغاية لأنها ترتبط بفعل الإنسان الذى لاينبغى أن يوجه نحو الشر أو يكون محدوداً بمصلحة فردية، بل يكون موجها إلى صالح الناس جميعاً. وعلى هذا الأساس يكون جزاء الإنسان فى الحياة الدنيا وفى الآخرة.

وقد ترتب على هذا تغير حس الإنسان بالتاريخ؛ فالماضى ليس وجوداً منتهيا، وليس المستقبل مجهولاً أو عدما، بل إن الماضى عظة وعبرة للحاضر والمستقبل، كما أن المستقبل أمل يمتد حتى بعد الموت عندما يبعث الإنسان ليجازى على فعله.

والإنسان ليس سوى مظهر واحد للمظاهر المتعددة لفيض الوجود الإلهى. وإذا كان الوجود الإلهى حركة وقوة وعدلا ورحمة، فعلى الإنسان أن يتحرك حركة المؤمن بهذه المفاهيم.

أما الحق والباطل، فلم يعودا مختلطين، بل أصبح الحد فاصلاً بينهما مثلما أصبح الحد بين الحلال والحرام حاسماً. «الحلال بيّن والحرام بيّن».

لقد استوعب الإنسان العربى هذه المفاهيم الجديدة. وأصبحت أساس حركته فى الحياة. وعندما صنع أبطاله لكى يعبروا عن آلامه وآماله، جعل نسيجهم منطويا على كل هذه المفاهيم الجديدة.

ولكن تتحقق هذه المفاهيم على مستوى الأفعال يتحتم أن يكون البطل متصفا بمجموعة من الصفات التى تؤهله لأن يكون ممثلا

للجماعة. وأولى هذه الصفات حرص البطل على تأكيد ذاته بتحريرها أولا من كل ما يكبلها من قيود اجتماعية بالية. ولاينشأ لذاته، يحقق فى الوقت نفسه ـ أساساً ـ صالح الجماعة بأسرها وأهدافها.

وهنا نأتى إلى الصفة الثانية اللازمة لتحقيق الصفة الأولى وهى الشجاعة. وإذا كانت الشجاعة صفة يمكن أن يتصف بها الأفراد العاديون، فإن شجاعة البطل الشعبى تتميز بخصوصيتها، لا لأنها تعد جماع شجاعة الجماعة فحسب، بل لأنها، قبل كل شئ، مستمدة من القوة الإلهية؛ فالبطل فيض من نبع تلك القوة، وهو تيار متدفق لايصمد أمامه إلا الحق والعدل والخير. وهو لايهمه الموت لأن بطولته تأكيد للحياة والموت على السواء.

لهذا كله فإن البطل الشعبى ليس له مطمع مادى أو شخصى، لأنه قادر على أن يكبح جماح نفسه بقدر مايكبح جماح غيره، ولأنه لايتحرك من وعى زائف أو من موقف متردد يقف به فى منتصف الطريق ليساوم على التصالح والحل الوسط. وإنما ينطلق البطل مدفوعاً بطاقة حيوية هائلة ليصيب الهدف الكبير، وهو أن يجعل للنور طريقا إلى كل قلب ليبصر به الحقيقة ويسعد بالمغزى الكامل للحياة.

وليس الهدف من هذا الكتاب أن يقدم البطولات العربية. كلا على حدة بهدف إبراز نموذج البطل وملاءمته للرسالة التاريخية

المنوط بتحقيقها، فلقد سبق أن تناول الباحثون بطولات السير العربية المختلفة بالبحث العميق الجاد، سواء كان هؤلاء من الباحثين العرب أم من الأجانب. وكان نصيبى من هذه السير بحثى حول سيرة الأميرة ذات الهمة ومدى تأثير هذه السيرة الكبيرة حجما وموضوعا فى الملاحم والأغنيات البيزنطية.

ولكن الغرض من هذا الكتاب هو إبراز مدى انشغال الوعى العربى بالبطولات العربية الممتدة منذ بطولة الرسول عليه الصلاة والسلام. الذى يمثل النموذج الأعلى للبطولة الإسلامية. فمنذ ذلك التاريخ. ومنذ أن كتبت السيرة النبوية، وحتى اليوم، لم يكف الوعى العربى عن أن ينتقى من قلب التاريخ نماذج من البطولات العربية، مثل بطولة على بن أبى طالب وعنترة، والملك سيف بن ذى يزن، والظاهر بيبرس، وغيرهم.. وقد كان من الممكن أن يحدث لدى الشعب العربى نوع من الإكتفاء الذاتى بالبطولة المثالية بطولة الرسول عليه السلام، فلا يلتفت إلى غيرها، ولكن الوعى بأهمية استمرارية هذه البطولة المثالية كان قويا، ومن هنا كانت الاستجابة لدوافع اللاشعور الجمعى بتخليد بطولات عربية أخرى تحتذى البطولة المثالية من ناحية، وتأخذ على عاتقها الابقاء على شعلة الدين الإسلامى متوهجة من ناحية أخرى، بخاصة فى الظروف التاريخية التى يكون فيها الإسلام مهدداً. والدولة الإسلامية مهددة.

وعلى الرغم مما يبدو من تماثل بين البطولات العربية التى اكتملت صورها فى عصور متأخرة من حيث أنها جميعا تشترك فى البطولات الخارقة، وأن رسالتها تتحدد بمحاربة كل ما يتهدد كيان الأمة الإسلامية والرسالة الإسلامية السامية، فإن كل بطل يتميز عن غيره بملامحه وأفعاله فى الحقبة التاريخية التى عاش فيها.. ولا غرابة فى هذا، فكل سيرة من السير العربية تحرص على أن تجعل بطلها قائد الجيش الشعبى فى ظروف تاريخية محددة، وتجعله المسئول الأول عن إنقاذ الشعب من كل مايتهدده ويتهدد مسيرة حضارته فى الداخل والخارج معاً. ولهذا فإن المجال التاريخى الذى عاش فيه عنترة، غير المجال الذى عاش فيه الظاهر بيبرس، وكلاهما عاش فى مجال يخالف ذلك الذى عاشت فيه البطلة الأميرة ذات الهمة أو الملك سيف بن ذى يزن، وكل هؤلاء تختلف مجالات أفعالهم عن المجال الذى شهد الصراع بين أبى زيد الهلالى والزناتى خليفه.

ويؤكد هذا الامتداد التاريخى بالبطولات الإسلامية مدى انشغال الذاكرة الشعبية بالنموذج البطولى إلى درجة أنها لم تكف عن إنتاجه منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام. حتى العصر المملوكى.

وعندما كفت الرواية الشفوية لسير الأبطال أو تقلصت، كانت الذاكرة التاريخية للشعب العربى من الفعالية بحيث أنها كانت شديدة الحرص على الإبقاء على النماذج البطولية حية فى ثنايا الكتب التى تعد تسجيلاً رائعا حيا لأحداث السير المروية. ولولا هذه الكتب التى دونها مجهولون، لاختفت هذه النماذج البطولية من

الذاكرة التاريخية للشعب العربى، ولم تمكن الأفراد المبدعون من إعادة إنتاج هذه البطولات فى أعمالهم الأدبية المتفردة.

وتقاس بطولة البطل فى كل النماذج المشار إليها بتفوقها على قوى الشر، لامن حيث الكيف فحسب، بل.من ناحية الكم كذلك؛ فمهما تكن درجة تأصل الشر، ومهما يكن تمتع القوة الشريرة بقدرات خارقة وحيل واسعة فى وضع العراقيل فى طريق البطل، يظل البطل متفوقا عليها فى ذكائه وحسن حيلته، فضلا عن تفوقه فى القوة الجسدية. ويعد هذا الصراع بين الطرفين وتصعيده إلى أقصى درجة، من أهم المتع الفنية التى يقدمها القصص البطولى للقارئ والمستمع. على أن الهدف الأبعد من هذا التصعيد هو تأكيد قدرة البطل فى أن يسلب العناصر الشريرة قوتها وأن يجعلها مشلولة الحركة. وهذا يعنى أن البطولة تعنى تحويل مسار الأحداث الذى كان ماثلا عندما كانت قوة الشر قادرة على التهديد، إلى وضع جديد تصبح فيه القوة الشريرة خامدة الأنفاس، ويصبح البطل بمثابة صمام الأمان لمجتمعه.

وربما كان من الطريف أن نشير فى هذا المجال إلى المعادلة الرياضية التى انتهى إليها ليفى شتراوس فى بحثه عن الأسطورة وهى:

$$Fx\,(a) : Fy\,(b) :: Fx\,(b) : Fa\text{-}1\,(y)$$

والمعادلة تشير إلى حركة الصراع بين قوى الشر وقوى الخير، وما يؤول إليه هذا الصراع فى النهاية؛ فإذا كانت (a) تمثل قوى

الشر، و fx تمثل وظيفة الشر (على أساس أن الحرف أن الحرف F اختصار لكلمة Function ، أى وظيفة، والحرف x رمز لقوة الشر) فإن (b) تمثل قوة الخير، كما أن fy تمثل وظيفة الخير.

وتبدأ المعادلة ببداية حركة البطل. وهى المرحلة التى تبدو فيها القوة الشريرة مناوئه للبطل، ثم لاتلبث الأمور أن تنقلب عندما تسلب القوة الخيرة (b) القوة الشريرة (a) قدرتها على فعل الشر، وبذلك تصبح fx (b) ، فى حين تنتقص درجة قوة الشر عند الشخصية الشريرة، فتصبح fa -1 . ثم يسفر الموقف فى النهاية عن وضع مختلف كلية عندما تستسلم قوى الشر لتقتل أو تبعد مفسحة المجال أمام الخير وحده، أى للوحدة الرمزية (y).

أما عندما تكون قوة الخير غير متفوقة على قوة الشر، أى أنها لم تمنح فائض القوة عليها، فإنها تصبح عاجزة عن إتمام العمل البطولى. وهذا ماحدث لبطلين شعبيين ذائعى الصيت وهما أبو زيد الهلالى والزير سالم؛ فحيث أن القوة وزعت على أساس التكافؤ بين القوة الخيرة والقوة الشريرة (راجع أسباب هذا فى الفصل الثالث)، لابد أن يستمر أعمال القتل بين الطرفين على أساس التكافؤ كذلك حتى يفنى الطرفان عن آخرهما.

وقد بدأنا البحث بالسيرة النبوية الشريفة، حيث أن إنجازات الرسول عليه السلام. فى سبيل دعم قوى الخير، وقهر القوى الشريرة، حددت النموذج الأعلى للبطولة المثالية التى حاولت البطولات القومية بعد ذلك أن تحتذى بها. وقد ظلت السيرة النبوية تروى زمنا

طويلا إلى أن دونت لتظل خالدة فى الذاكرة التاريخية للشعب العربى أبد الدهر. وإلى جانب هذه السيرة المدونة، ظل الرواة الشعبيون حريصين على رواية أخبار منها فى المناسبات الدينية المختلفة.

وفى حقبة تاريخية أخرى شغل العقل العربى الجمعى ببطولة على بن أبى طالب، وكنت قد عثرت على ثلاثة مخطوطات ترجع إلى زمن مبكر، تحكى عن بطولة على بن أبى طالب فى معركة تبوك، فشئت أن أقدمها للقارئ لتؤكد استمرارية انشغال الوعى العربى بمفهوم البطولة النموذجية. وكان هذا هو موضوع الفصل الثانى.

أما الفصل الثالث فيبحث فى مفهوم البطولة القومية واستمرارية تصويرها فى أكثر من نموذج بطولى خلال حقب متتالية من التاريخ.

وأما الفصل الرابع فقد خصصناه لبطولة الملك سيف بن ذى يزن نظراً لخصوصية هذه البطولة فى حمل رسالة تاريخية خاصة تختلف عن سائر الرسالات التى حملها الأبطال الآخرون؛ فإذا كانت البطولات القومية الأخرى، مثل بطولة عنترة والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة، قد حملت على عاتقها التصدى للعدو الخارجى المتربص بالإسلام والدولة الإسلامية، فإن الملك سيف بن ذى يزن حمل رسالة أخرى تعد صدى لأحداث تاريخية حدثت بالفعل فى القرن الرابع عشر الميلادى، عندما أعلن الملك سيف أرعد ملك

الحبشة أنه سيحرم مصر من مياه النيل. وكان على الملك سيف بن ذى يزن أن يحضر كتاب النيل من مكمنه السحرى حتى يبطل بقوة سحره، كل المزاعم الباطلة لملك الحبشة.

ولم تكن الذاكرة العربية مختزنة لنماذج من الأبطال الرجال فحسب، بل كانت مختزنة كذلك لنماذج من البطولات النسائية التى أبرزتها فى بعض السير وجعلتها تقف على قدم المساواة مع البطل الرجل من حيث الاتصاف بقوة الإرادة والإضرار والوعى المستنير برسالة المستقبل. ولهذا فقد خصصنا الفصل الخامس والأخير للبطولات النسائية.

وبهذا يؤكد هذا البحث أن نماذج البطولات العربية التى جاءت متعاقبة بعد بطولة الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت الزاد الذى تزود به الشعب العربى فى الملمات التى ألمت به فى الحقب التاريخية المتعاقبة، ومانزال تلم به حتى اليوم. ومن ثم فهو مايزال يتذكر هذه البطولات، وسوف يظل يتذكرها ويعيد إنتاجها على مستوى الوعى الفردى والجمعى على السواء.

أ. د. نبيلة ابراهيم